

الشعر والزمن

بقلم الدكتور محمد الخطاط

الجنون او الانتحار، او قد يتبوا شخص ، في غفلة من الزمن وبصورة غير طبيعية ودون ان يكون مؤهلا ، منصبا كبيرا ويقع تحت سطوته كثير من الناس فتضطرب زمنيته في ذهنه ، وقد يعاني من هذا الاضطراب كثير من الابرياء ، ولا شك ان الزمن هو المنتصر في هذه الحالات الخاصة .

واخطأ قسم من الشعراء القدامى والمحدثين التوقيت في نظمهم القصائد التي كانت تمثل ردود افعال تفتقد فعلا انيا او سابقا وتتطلع الى فعل حاصل بعد فترة النظم ، فقصيدة المديح كان الشاعر يكتبها وذهنه يدور في دنيا المدوح واثار القصيدة في نفسه ومقدار الجائزة والاعطية ، وقصيدة الرثاء تتساءل في وقت نظمها عن الدموع والتأوهات والاحزان التي ستثيرها وقت القائها ، وقصيدة المناسبة تحلم بجو عاصف من التصفيق والاثارة والاستعادة والامجاد والنفعية .

كان الشاعر ينظم قصائده للآخرين ، بمعزل عن نفسه ، ولذا كانت اشعاره وسيلة وتسولا وتوسلا ، غايتها اثاره الحماس او الاعجاب بعد وقت نظم تلك القصيدة من منح اعطية او تصفيق جمع او اثاره اعجاب ، وكان الشاعر عاملا باجر ، مادي او معنوي ، لسه واجب معين لا يحيد عنه ، في عالم منغلق محدود ، ولهذا السبب بالذات ظل الشاعر يعيش لنفسه منعزلا ، وحيدا ، منفذا ومتلقيا ، يقلب همومه الشعرية بأسى .

وقصيدة الغزل - في اكثر الاحيان - تمثل رد فعل لفعل لم يحصل ابدا ، وكانت في اكثر نماذجها تفتقد التجربة ، مبعثها الحاجة الفريزية ، وقوامها الوصف الحسي لعينين او خدين او شفيتين ، وافصاح عن تأوهات الشاعر المستمرة ، اما الحب بمعناه الحقيقي ، والتجربة الكامنة فيه المثيرة لاعمق ما في الشعور الانساني من جدل غامر او توحدا لا مثيل له ، فقد كان افعالا ضائعة وجدت لها ردود افعال مزيفة تتمثل في اكثر الاوصاف الغزلية في شعرنا القديم والحديث ، ويشكو بعض الشعراء ويكون ويتأهون ويتحرقون لحب لم يعرفوه او حبيب لم يروه ، ليست اعمالهم هذه - اذن - ردود افعال تتوسل فعلا؟!!

ولم يكن اكثر الشعراء يتطلعون الى المستقبل الا في دوائر الافعال التي يتوقعون ان تبرز بعد تلك الردود، ولا يعني الوقت عندهم شيئا ذا خطورة ، فالاموات لا

لا شيء غير الوقت يضبط مظاهر حياتنا جميعا ، صغيرها وكبيرها ، ويفسرنا بدقة متناهية ، في العلم والفن والسياسة والاجتماع ، فهو المقياس الوحيد الذي يعرف ما بين الحصاره والتخلف والغباء والدناء والخطا والصواب وما بين الفن والهدر ، ويمكن ان نخضع له ما يرضي افكارنا من تساؤلات دائمه .

والبشر في ضوء الزمنية اصناف : منهم اللاوقتيون الذين يعيشون خارج الزمن ، دون ان تؤثر فيهم حدوده وابعاده ، وهم القطيع ، اتخذوا اشكالا من التفكير بسيطة ومحدوده فتستبشوا بها ولم يحيدوا عنها اثارا للعافية الفكرية واطمننا الى الكسل العقلي وتاكيدا للذات المتهاوية ، يولدون وينمون ويتكاثرون ويموتون آليا ، يتعشعون الماضي دوما ، في اكثر اشكاله جمودا وتحجرا ، لا حاضر لهم ولا مستقبل ، ولا تطمع ولا طموح ، ولا اهتمام ولا هموم ، وما اكثرهم ، ومنهم الذين اتفق توقيتهم الذهني بزمنية واقعية صائبة ، وفريق ثالث نفذ الى الزمن وسبقه وحاول ان يتعداه بمراحل تختلف ما بين شخص واخر ، وما اقلهم ، ويضم هذا الفريق العباقرة والمجرمين والرواد والقادة والمبدعين والمجانين والمستبدن والمتحريين ، الاصيلين في هذا وذلك ، دون ان يطرأوا لسبب خارجي او تلف عضوي او ارتباك اجتماعي .

ووقع تحت وطأة الاضطراب الزمني كثير من الضحايا ، في كل مكان وزمان ، وانتحر كثيرون وانحسر فريق الى المصحات العقلية ، ومن اكثر هؤلاء الضحايا عذابا الشعراء الحقيقيون ، واستطاع اصحاب المواهب ان يبدعوا وان يقدموا للبشرية اعمالا عظيمة ، ومنهم بيتهوفن الذي كان يقرع الزمن بتأليفه الموسيقية الهادرة، وجاء هتلر بتوقيت جنوني سريع فاراد ان يسحق القرن بسنة ، والسنة بيوم ، واليوم بدقيقة ، وان يقرب في ثوان وجه هذا الكوكب الارضي ، وان يلف بجملته صاحبة في خطبة تاريخا بأسره ، وشعبا كاملا بكيانه ، وسحقت الزمنية هتلر ولكنه خلف بحربه الشعواء زمنية جديدة في انحاء هذا العالم ما زالت تلفنا بدوامتها تشتتا وانبهارا ، وتشنجا وانفعالا ، ووحدرة وغربة .

وقد يقع بعض رجال القطيع من الصنف الاول تحت وطأة الاضطراب الزمني حين تطرأ على حياتهم شؤون غريبة كان يحصل فرد فجأة على جاه او ثروة او مجد عابر فيضطرب لديه التوقيت ، وقد تصل به الحالة الى

يعيشون اللحظة الحاضرة ، وفقدوا القدرة على التطلع الى المستقبل ، والاموات من الاحياء لا يعيشون الا تجارب مسبقة مضت واندرت ، دون ان تحملهم على تأصيل تجاربهم الحاضرة والمقبلة ، ولا يفكرون في عالم الفن الا بمنطقية رياضية ، او بنفعية هادفة ، فمن من المدوحين يجزل العطاء ، واين الجماهير التي يمكن ان تثيرها هذه القافية او تلك ، تستعيد وتهتف ، ردود افعال هؤلاء الشعراء تتخذ من الوقائع الحاصلة في الماضي جوا يلف ابعادها وتطلعاتها وهمومها ، لم ينفذوا الى المستقبل ولم يسبقوا النماذج الموروثة او يبشروا بقيم جديدة ولم يتصدر الفعل عندهم رد الفعل مع توقيت طبيعي ما بين هذا وذاك ، وافقدت نماذجهم الصدق الابدئي واحيطت بهالة من الانفعال الكاذب والمبالغت المقيتة ، وخير لهم ان يفقدوا الذاكرة لمدة موقته ولهم ان يستعيدوها بعد ذلك لتمتج في اذهانهم الازمنة بابعادها الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ، ومن يدري فقد يبحثون عن بعد رابع؟!

كان التوقيت لا يعني شيئاً بالنسبة لهؤلاء الشعراء، فهم يعيشون في بحبوحة من الزمن المنبسط ، لا تكثيف فيه ولا تحديد ، والمسؤولية فيه امر غريب ، ولم يكن الزمن يعدو بهم في سرعة هائلة الا حين يمتشقون الاقلام ليلخصوا الاحداث الجارية والافكار المعروفة بابيات شعرية موجزة غاية الاجاز ، تسقط الظلال وتجهض التفصيلات التي تهيب للقرارى الجو الشعري بعوالمه اللامتناهية ، وبعد ذلك التلخيص يعودون الى الشمس فيقعدون فيها حقبا واجيالاً .

والفرق بين الشاعر المتحضر المبدع والشاعر المتخلف المجتر يكمن في موقفهما ازاء الزمن وصدور ردود الافعال عندهما عن افعال حقيقية او مفتعلة . وقد غيرت الحرب العالمية الثانية التوقيت في الشرق وفي الغرب حين جاءت بتلك الضراوة القاسية التي كثفت حياة الانسان الى اضعاف ما يعيشه عدا وتفصيلا على التقويم .

وساعدت المخترعات الحديثة على التكتيف الزمني وعزلت من امتد بهم الزمن وانبسط واستفرق اغفاءات طويلة تحت الشمس ... عن اتحدوا مع الزمن بتوقيته الصائب فقدموا للبشرية خدمات طبيعية ... او عن اولئك الذين سبقوا الزمن بتحد وتصميم فنقدوا الى المستقبل بتطلعات رائعة مبشرين بقيم شعرية جديدة في عالم الانسان الآتي .

وقام بعض الشعراء المحدثين بعملية اتحد فيها الفعل برد الفعل حين عبروا عن تجربة او احساس او موقف وحين طمحو الى تغيير وجه العالم الثابت ، واختلف التوقيت عندهم في التفكير والتوقد الذهني عن المجال المنبسط الذي يجدون انفسهم فيه ، غرباء ومنتزعجين ، وتكمن مأساة هؤلاء الشعراء في وحدة

التوقيتين المختلفين المتمثلة - تعبيراً - في الرمز الذي يقود اجواءهم واحلامهم وتطلعاتهم في عالم الحبور الزمني الذي يعيش فيه الناس اشباحا متحركة وظلالا باهتة .

ولن ينحصر الرمز عن القصيدة الحديثة ما لم تنسجم احداث بلادنا المعاصرة مع المستوى التوقيتي السريع في ذهنية الشاعر المحدث ، وسيبقى هذا الشاعر ضحية للتوقيتين المختلفين والمتباعدين والصراع القوي الدائب بينهما ، في معركة الغباء والذكاء ، واغتيال التوقد الذهني اللامع في اشكاله المختلفة الكامنة والظاهرة ، وسيبقى الاغراق في الرمز مسيطراً حتى ينتهي على يد موهبة عالية تأتي فتقتلع الجذور وتهدر النسوغ ويتحد عندها التوقيت الخارجي بالزمنية الذهنية ، وتعلن بجرأة وتصميم ان الغباء ليس اعظم رأس مال في عصرنا الحاضر ، وان الاحتكارات الادبية والعوالم المغلقة في دنيا الفن قد تعفنت وان هؤلاء الذين لا يحبون ان يعكروا صفو الحلم الدائم واغفاءة العافية الفكرية الثابتة سيتردون من رحاب الفن ومظانه ، يصمم العار بأنهم اموات احياء لا تنتظم افكارهم الزمنية المتوقدة .

مأساة الشاعر القديم تكمن في التوقيت المنبسط والاجزاء المنغلقة تبعا لظروف العصر الثقافية ، والشعر عنده ضرب من عقل ، ومأساة الشاعر الحديث تكمن في التوقيت المكثف ، والانفتاح العالمي المتمثل في الثقافات الوافدة والمكتسبة ، بحيث اختلف توقيته عما هو حاصل في مجتمعه والاجزاء المحيطة به ، والشعر عنده ضرب من جنون .

فما دام كلا الشاعرين يعاني الازمة نفسها بحديها المختلفين ، غباء وذكاء ، عقلا وجنونا ، انبساطا وتكثيفا ، فلم لا يتحدان في سبيل توقيت يجعل الفعل يسبق رد الفعل دون ان يمتزجا ودون ان يسبق الثاني الاول ، لقد فرق بينهما الزمن ويبدو ان اللقاء بينهما محال ، آثر الشاعر الاول ان ينأى بنفسه عن الزمن ويتعد فينجو من الصراع الذهني الدائب الذي يميز الانسان الحاضر بين مخلوقات هذا العالم الارضي .

ان شعر الخطابة ورد الفعل المطلق لا يستقيم بنفسه دون سامع او ممدوح او مصفق او مفن ، فاذا اختفى الممدوح ، وقد فعل ، وانحسر المصفق وجد الشاعر نفسه متخلفا ما لم يبحث عن توقيت جديد وعن مضامين تنسجم معه ، وهذا ما حصل عند فريق من الشعراء ، حين آثر آخرون العيش في غيابات الماضي ، فاذا كبحن التوقيت الزمني عند الشاعر الجديد وانتشلنا الشاعر القديم من رجوعيته وعيشه في غير عصره ، وممارسته اللاشيئية السائبة ، وانبساطه المتمتع بشموس ازلية ، استطعنا ان نحملها على توزيع شعري جديد ، والصراع بينهما عبث لا يستسيغه الفن ، وهراء لا يرتفع الى مستوى المسألة وان كان مظهرا اجتماعيا حتمته الظروف .

جلال الخياط